(٣) جورج ف. كينان:

لم تعرف السياسة أو الدبلوماسية الأمريكية مفكرًا أو منظرًا أو كاتبًا أو محاضرًا أو أستاذًا أكاديميًا أو ممارسًا ارتبط اسمه وعمله بالقيم الأخلاقية التى تصل فى أحيان غير قليلة إلى درجة المثالية التى من النادر اقتفاء أى أثر لها فى مجال الممارسات السياسية الزاخرة بالأكاذيب والمؤامرات والدسائس، لكنها عرفته فى شخص جورج كينان الذى تلقى تعليمه الأول بمدرسة ميلووكى الابتدائية ثم بأكاديمية سان جون العسكرية فى ديلافيلد بولاية ويسكونسن. وعندما اكتشف عميدها حب كينان لكل أنواع الثقافة والفكر والأدب والسياسة، اختار له الخدمة فى السلك الأجنبى الذى يمكن أن يستفيد من قدراته وطاقاته فى هذا المجال الحساس والمؤثر فى سياسة بلده وصورته فى عيون الدول الأخرى.

وعندما التحق عام ١٩٢١ بجامعة برنستون، انتابه الذهول من روعة بنائها القوطى المهيب نظرًا لحساسيته الفائقة تجاه كل ما يثير فيه أحاسيس تضاف إلى مخزونه الشعورى واللاشعورى. وقد أصابته هذه الحساسية بأنواع من الارتباك والحرج والتردد فى طفولته، واستمرت معه نتيجة لاحتكاكه بفجاجة طباع الغرب الأوسط والتى احتمى منها بخجله وانطوائه على ذاته، لكنه كان عظيم الكبرياء ويأنف أن يطلب عونًا من أحد، وكان لاثنين من الأساتذة تأثير كبير على تفكيره: ريموند سونتاج أستاذ التاريخ الدبلوماسى، وجوزيف جريسن الذى قام بوضع نظام الامتحانات للمتقدمين للخدمة فى السلك الأجنبى، وكان تأثيرهما عليه فكريًا أكثر منه قائمًا على صلة شخصية. وترك كينان برنستون بمجموعة صغيرة من الأصدقاء؛ لأنه وجد فى وحدته خير ارتياح بعيدًا عن الخلافات الشخصية أو الجماعية. لكنه عُرف فى برنستون بصفائه الذهنى وقدرته على التعبير الحر السلس، ونبذه للسلبية أو العزلة عندما يواجه ما يستدعى التحدى، واستغراقه فى عالم الأفكار الجياش بالآفاق الجديدة، وتحرره من أى فكر مسبق، وحبه للأدب خاصة الكلاسيكى منه، وعشقه للسياسة والتاريخ الحديث، والذى يحكى فى انكبابه على المؤلفات الضخمة لكبار الساسة والمؤرخين من أمثال إدوار جيبون الذى ترك أثرًا بالغًا على أسلوبه فى الكتابة، كقوله: «القوة هى الوسيط الذى نعمل من خلاله».

وقد تخرج فى برنستون عام ١٩٢٥، مسلحًا بالقدرة على النمو الفكرى فى المستقبل، والسباحة ضد التيار التقليدى العاجز عن الابتكار والإبداع، وإن لم تسفر عن اكتمالها تمامًا فى تلك المرحلة المبكرة من حياته، وإن أثارها غموض الليبرالية التى

نادى بها الرئيس وودرو ويلسون، فانتابه الأسى لعزوف الولايات المتحدة عن الاشتراك فى عصبة الأمم، بقدر ما كان إيمانه بالاقتصاد الحر وجدوى المنافسة. وكانت دراسته فى برنستون عونًا له على إبراز تلك الاهتمامات متحررة من القالب الأيديولوجى الجامد الذى يرفضه الفكر النقدى الثاقب، الذى لم يتخل عنه كينان طوال حياته، إذ كان منظوره الموضوعى والمتجدد الذى حدد موقفه تجاه كل القضايا والمواقف التى عالجها عبر حياة سياسية ودبلوماسية طويلة وعريضة، وحافلة بنقاط تحول مصيرية فى تاريخ الولايات المتحدة. وبرغم انهماكه فى العمل السياسى الذى خاض فيه بكل طاقته وارادته، فإنه التزم بمنهجه التقدمى الفكرى، الذى لم ينحرف عنه قيد أنملة، فقد كانت حكمته السياسية عمودًا فقاريًّا لهذا المنهج.

بعد أن أدى كينان فترة التدريب فى مدرسة الخدمة الخارجية فى واشنطون، عين تحت الاختبار بالقنصلية العامة فى جنيف، ثم نقل نائبًا لقنصلية هامبورج بألمانيا. وفى عام ١٩٢٨ تم تدريبه ليكون خبيرًا فى الشئون الروسية، وقضى السنوات الخمس التالية فى برلين وفى عاصمتى ولايتى البلطيق: تالين وريجا، ثم عمل سكرتيرا ثالثًا فى موسكو عام ١٩٣٤، ثم قنصلاً عام ١٩٣٩ فى براج، وسكرتيرًا أول عام ١٩٤٠ فى برلين، ومستشارًا للوفد الأمريكى فى اللجنة الاستشارية الأوروبية فى لندن عام ١٩٤٤، ووزيرًا مفوضًا فى موسكو عام ١٩٤٥، ومديرًا لإدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية عام ١٩٤٧، ثم سفيرًا لدى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٢، ويوغوسلافيا من ١٩٦١ إلى ١٩٦٣ . وبعد أن أحيل إلى التقاعد من الخدمة فى وزارة الخارجية أصبح أستاذًا دائمًا بمعهد الدراسات العليا فى برنستون حتى تقاعده عام ١٩٧٤ . وقد جمع فى حياته بين الدبلوماسية والأكاديمية على مستوى لم يبلغه أحد غيره، وقد جعلت منه خبرته بالشئون الروسية مرجعًا لا نظير له ، ومنحته مكانة رفيعة فى السياسة الخارجية الأمريكية.

كان كينان فيما بين العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين أحد القلائل الذين اختيروا لبلورة العلاقات الأمريكية السوفيتية، لإتقانه اللغة الروسية وإلمامه الموسوعى بالتاريخى الروسى والثقافة الروسية. وكان من زملائه تشارلز بوهلن الذى اشتهر بلقب «السياسى الداهية» و«مولين تومسون»، وقد شغل كلاهما منصب السفير لدى الاتحاد السوفيتى فى فترة الحرب الباردة الحرجة، وكانا على درجة عالية من الخبرة العملية أهلتهما للمشاركة فى وضع القرار فى وزارة الخارجية، ولمناصب تنفيذية متعددة، وكانت لهما خبرتهما الضخمة فى التعامل مع البيروقراطية ، أما كينان الذى كان أكثر الثلاثة أصالة فكرية فقد بقى على ضيقه من الجهاز البيروقراطى بل وفزعه

منه، لكنه لم يفقد حرصه على الاندماج فى العمل الدبلوماسى، والتخطيط السياسى والتكهن بخفايا السياسة وتوقعاتها، ورأى فيه زملاؤه بعض الملامح الرومانسية التى تصل إلى درجة المثالية، خاصة عندما يواصل السباحة ضد التيار السائد.

وفى خلال الخمسينيات، قرر أن يشارك فى الحياة العامة كعضو فى الكونجرس، وأعد نفسه لترك مسئولياته فى مجال العلاقات الخارجية ليقود حملة عامة لتجديد المدن المتهالكة والمنهارة. ومرة أخرى يبالغ ويخطئ تقدير قدرته على التأثير؛ مما أدى إلى تضارب الآراء بشأن أفكاره ومشروعاته، فهو إما متغطرس بالغ الغطرسة أو متواضع شديد التواضع. وكان عندما يكتب عن إخفاق شخصيته كتلميذ، يرجعه إلى الكبرياء، والحساسية الزائدة، والرفض العنيد لأى عزاء أو شفقة، والإصرار على معرفة الشر والوعى بكل خباياه لكى «أحظى أكثر من الآخرين بالجاذبية والمشاركة الوجدانية» على حد قوله. وكيفما كانت قدرة كينان على التغلب على ما سلم به من فشل فى صباه، فإنه، باستثناء الفترة التى رأس فيها معهد برنستون، لم يحقق ما تؤهله له ملكاته العقلية وأخلاقه العالية من رفعة وسمو. ويبدو أن هذه سمة تكاد تكون عامة فى كل السابحين ضد التيار، الذين لا يسعون للشهرة والمجد الإعلامى لأنهم يضعون رسالتهم وقيمهم ومثلهم فوق أى اعتبار آخر. كانوا حكماء وسط قطعان من الجهلاء.

وإذا كان الفشل قد ألم به لفرط حساسيته ومثاليته، فإن النجاح ألم به فى حياته الوظيفية ، ورغم أن كتاباته قد بلغت الذروة. فى تبرير العمل فى الوظائف العامة فإنه ظل قاصرًا عن تحقيق هذا الهدف فى الواقع. وبتعبير أدق، فإن كينان الرومانسى الحالم كان فى نزاع دائم مع كينان الموظف، وظل يسأل زملاءه من الموظفين: «هل أقول غير ما أفعل» . وفى عام ١٩٥٠ بعث به وزير الخارجية دين أتشيسون إلى أمريكا الجنوبية، ليقلع عن عناده القابع فى رأسه، وكان أن كتب مذكرة، استعان فيها بملاحظاته ومشاهداته وخبراته فى رحلاته، عن الحكم والسياسة فى أمريكا اللاتينية، كان فيها كعادته أمينًا وصادقًا، وإن رسمت صورة كئيبة لبعض القوى والاتجاهات المتسلطة على تلك القارة المزعجة. وكانت الفروض والنتائج التى أجملها فى تقريره مغايرة تمامًا لكل ما سارت عليه سياسة أمريكا الخارجية، وعبرت تعبيرًا دقيقًا عن يأسه وقنوطه من تلك القارة، التى لم يتمتع بمباهجها السياحية التى كانت من أهم أهداف زملائه الدبلوماسيين. ولم يلق تقريره قبولاً عند المسئولين فى واشنطن، فصدر الأمر بتمزيق نسخه الإضافية والتخلص منها تمامًا، أما النسخة الأصلية فقد دفنت فى محفوظات وزارة الخارجية. وكان كينان قد حذر فيها: «من ذلك العجز المخيف الذى يبدو فى الأفق والوهن البادى يخيم بظله على أمريكا اللاتينية». والقادة والزعماء فيها عاجزون

أو يأبون مواجهة الحقيقة، وقد رأى فى كل عاصمة من عواصمها نوعًا من التقوقع البالغ حول الذات، والصلف، والإصرار المؤسسى على نثر الأوهام عن الذكاء والشجاعة وإدعاء إنجازات لم تحدث فى الواقع.

وصف كينان المجتمع فى أمريكا اللاتينية بأنه «يعيش سلسلة من الإدعاء الكاذب وليس الإدعاء المتقن الهادف الذى مارسته الشيوعية الروسية، ولكنه ادعاء مغرق فى الذاتية والفوضوية، يدور فيها كل فرد أشبه بالشرنقة حول ذاته، لكل منهم دنياه الصغيرة من الدعاوى الذاتية». وكان لمدينة المكسيك أقسى الآثار وأشدها عنفًا عليه، فلم يشعر أبدًا أنها تعرف النوم ليلاً، لدرجة أنها حرمته منه أيضًا. أما كاراكاس فكانت فى نظرة صورة بالغة السخافة من الحضر، وسط جبالها الصفراء العديدة، كما كانت ريو فى غاية البشاعة ، وظلت سان باولو أكثر بشاعة. وحيثما ذهب كينان كان ينتابه «إحساس غريب من الخوف الممتزج بالكآبة»، فإذا تمعن فيما كان من قبل، فإنه يرى ما سجله فى تقريره:

«إن الحقيقة البادية، أننى فى كل جولاتى واستجابتى لكل ما يثير لا أملك إلا أن أكتب هذه الصفحات، فى حين تبقى وزارة الخارجية على ما هى عليه، تقوم بواجباتها كما كانت تقوم بها من قبل، لا تملك إلا أن ترفض هذه الصفحات وتأبى أن تأخذ علمًا بها. وأبدت من المنطق المناسب لها ما وضع نهاية لتلك الحياة الناقصة التى أزاول فيها عملى فى واشنطن، وقامت بنقلى إلى الخارج لأواجه حياة كئيبة مملة فى إعداد الملخصات والتمعن فيما لا يجدى، وليس فى الإغضاء عنه ما يضر».

وبالفعل سارعت وزارة الخارجية فى عام ١٩٥٢ إلى تعيينه سفيرًا فى موسكو نظرًا لأنه كان مرجعًا فى كل الشئون السوفيتية، ومتقنًا للغة الروسية، ومفضلاً عند السوفييت الذين طلبوا عودته سفيرًا لبلاده لديهم، وبالفعل استمر فى منصبه حتى عام ١٩٥٦ كأشهر سفير أمريكى فى الاتحاد السوفييتى. فقد دفعه الحنين إلى الحياة الأكاديمية والعلمية، وعين أستاذا دائمًا فى معهد الدراسات المتقدمة لتدريس مواد التاريخ والحضارات. وحتى عندما استدعاه الرئيس جون ف. كينيدى من التقاعد ليعمل سفيرًا لدى يوغسلافيا، لم يرحب باستغلال القطيعة التى وقعت بين يوغسلافيا والاتحاد السوفييتى كشرخ فى كيان الكتلة الشرقية، لأنه كان على عكس ما يرمى إليه رؤساؤه، يرغب فى إقامة علاقات ثقافية واقتصادية مع يوغسلافيا. فقد كان طوال حياته سابقًا لزمنه، فهو يؤمن بأن القوتين العظميين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى تلك الفترة كانتا تتجنبان العداوة ولكنهما من المستحيل أن يكونا صديقين.

وكان كينان على خلاف شديد مع وزير الخارجية دين أتشيسون ومساعديه جون فوستر دالاس ودين راسك والسفير فيليب حبيب حول قبول الصين الشيوعية بالأمم المتحدة، وكان الخلاف قد ثار حول هذه المسألة عام ١٩٥٠ وتناول النتائج السلبية والإيجابية لعضويتها بالأمم المتحدة. ورأى كينان نفسه كما يقول «وحيدًا في موقفه أغلب الأحيان، وأنه وحده الذى يعارض الشركاء»، ممن يرون أن قبولها بالأمم المتحدة لا يتعدى إقرار الأمر الواقع بهذه البساطة المخلة، وأنه كما يعتقد، يخفف من الإيهام والشك الذى يحيط باتجاهات أمريكا نحو آسيا، ويقضى على الاتهام الذى يوجهه بعض الآسيويين على الأقل بأنها تؤيد تشانج كاى تشيك، لأنها تسعى فى إطار خطتها الإمبريالية إلى السيطرة على قلب الأرض، واقترح كينان في حواره مع دين أتشيسون وجون فوستر دالاس ودين راسك وفيليب حبيب أن تعترف أمريكا أو تصوت إلى جانبها، ولكن عليها أن «تعلن على الملأ أن نظام بكين لا يبدو نوعًا من الالتزام الكافى بمسئولياته الدولية، وأن سلوكه الدولى سلوك عدوانى.. وإننا لذلك لم نعترف به، ولا نرى ما يدعو إلى ذلك، ومهما تكن دواعينا حول عضوية الصين فى الأمم المتحدة، منذ أصبحت موضوعًا لتساؤلات عديدة، ومنذ بدا الزعم بأن لنا أغراضًا خفية، فإننا قد أعددنا أنفسنا للامتناع إطلاقًا عن الاشتراك أبعد من ذلك، فيما يتصل بإثارة ذلك فى أروقة الأمم المتحدة، أو التصويت عليه، أو بأى صورة من صور الضغط أو التدخل لدى القوى الكبرى فى الإدلاء بصوتها».

ولم يلق دالاس بالاً إلى رأى كينان، خوفًا من أن يؤدى رأيه إلى حيرة الرأى العام الأمريكى، أو أن يؤدى إلى التهوين من البرنامج الدفاعى للرئيس. ويشرح كينان وجهة نظره عن دين راسك، فيقول دون أن يشكو من أن منظوره السياسى كان يساء فهمه دائمًا:

«أما عن راسك وغيره فإننى أعتقد أن هناك نوعًا من الإدراك الحقيقى للتبرم الأخلاقى بالشيوعيين الصينيين؛ إذ إنهم، بعد كل هذا، يطأوون الدرب نفسه الذى وطئه الروس من قبلهم طوال عشرين عامًا، منذ أول تجربة لنا مع الديكتاتورية السوفيتية. وما كنا يومها، كما نحن اليوم بغافلين عن التناقض الفلسفى بين المثل التى ندين بها، ومثلهم التى يدينون بها، إلا أننا نسلك تجاه هذا التناقض كما نسلك مع غيره من المسائل الدبلوماسية التى تقع فى إطارها، والتى نراها شبيهة بها وتناولناها من قبل. وقد تعلمنا ألا ننبذ صراع القوى أو ننأى عنه كأمر مفزع أو شاذ، فهو ذريعتنا، ولن نضفى على اللعبة شيئًا من الأناقة أو نزخرفها بشىء ما».

وكان كينان يؤكد أن أمريكا يجب أن تؤمن إيمانًا عميقًا بأنها على حق، فما هى، فى السياسة الدولية إلا واحدة من دول عديدة، تسعى لتأمين نفسها وحماية مصالحها

القومية، وما كان لنوازعها، أو طموحها، حتى فيما يتصل بأعدائها، أن تتوارى، أو تحاول أن تواريها بتلك المأثورات الشرعية أو فى الأنظمة الفلسفية. وكان الخلاف عميقًا فى ذلك الحوار الذى دار حول الصين، حتى أن دالاس فى تصريح صحفى، قال إنه مع ما يحمله من إكبار لجورج كينان، إلا أنه يراه على درجة كبيرة من الخطورة فى دفاعه عن قبول الصين بالأمم المتحدة، وتوقف الولايات المتحدة عن عملياتها العسكرية فى كوريا عند خط ٣٨ . وإذا كان ثمة دروس مستفادة من هذا الحوار، فإنها قد أثارت ثلاث قضايا معينة وتنطوى على تساؤلات تبحث عن إجابات ضافية تمس صميم السياسة الخارجية الأمريكية. القضية الأولى : أكان لسياسة أمريكا الخارجية فى آسيا أن تتغير إذا ما غلب رأى كينان أم أن الرأى شىء والتطبيق شىء آخر؟، والقضية الثانية: أمن الأجدى فى هذا الحوار الذى يتناول سياسة خارجية معينة أن يظل لهؤلاء المفكرين الحق فى الاحتفاظ لهم بالرأى الثانى، حتى لو كان رأيهم مبهمًا وغير مباشر؟ والقضية الثالثة: أكانت هناك جدوى، لو أن كينان قد نجح فى التأثير على السياسة الخارجية لتسلك طريقًا مباشرًا ومقننًا عن طريقين: سياسة الاحتواء التى أجملها فى برقيته المؤرخة ٢٢ فبراير ١٩٤٦ من ثمانية آلاف كلمة بعث بها من موسكو، أو تلك المقالة التى نشرها من تخفى وراء اسم «مستر اكس» فى مجلة «فورين أفيرز»، والتى مارست تأثيرًا ملحوظًا منذ يوليو ١٩٤٦، وكانت بعنوان «أصول القيادة السوفيتية»، وقد بين الصحفى آرثر كروك بصحيفة «نيويورك تايمز» بعد مقارنة بين البرقية والمقال، أن كاتبها واحد.

وبحكم أن كينان كان من الشخصيات النادرة التى تمارس النقد الذاتى بلا أى حرج أو حساسية، فقد صرح بأن الورقتين قد اتسمتا بالقصور فى ثلاث مسائل: فقد نسيتا أن تشيرا إلى البلاد التابعة فى أوروبا الشرقية، وما يمكن أن تؤدى إليه من انهيار قوة السوفييت، كما أنهما لم يبرزا إبرازًا كافيًا معنى احتواء القوة السوفيتي وأنه ليس احتواءً عسكريًا ينذر بتهديد مسلح، وإنما هو احتواء سياسى ينذر بتهديد سياسى. كما أنهما لم يوضحا أن هذا الاحتواء ليس من الضرورى أن يمتد إلى كل مكان، كما أراده ترومان، وإنما هو احتواء لبعض المناطق الجغرافية التى تهم الولايات المتحدة وتؤثر على أمنها.. كان كينان يؤمن بأن تشتيت طاقة الاحتواء فى بقاع غير مجدية وغير حيوية، من شأنه أن يضعف منطلقات الاحتواء وقوة دفعه، وربما فتح ثغرات فى السياج الأمريكى. لكن هذه الحكمة السياسية التى ميزت فكر كينان، كانت هى التى أثارت الكثير من الجدل فى مقال «مستر إكس»، فقد برزت فى دعوته إلى مواجهة السوفييت بقوة مضادة ثابتة فى كل مكان، يبدو منهم أى دليل ينذر بخطر يتهدد أمن العالم بصفة عامة وأمن الولايات المتحدة بصفة خاصة.

وتبع ذلك سلسلة من المقالات كتبها ولتر ليبمان، يهاجم فيها كينان، بلغت اثنى عشر مقالاً تم نشرها فى كتاب على غرار كتابه «الحرب الباردة»، ألح فيه على أهمية الأقاليم الحساسة فى أوروبا، وعلى انسحاب القوات السوفيتية والأمريكية والبريطانية من أوروبا، وحذر من أى محاولة لاستقطاب ألمانيا الغربية فى حلف ضد العصبة السوفيتية. ومع ذلك كان كل ما ذهب إليه ليبمان متفقًا اتفاقًا واضحًا مع ما جاء فى كتابات كينان الأخيرة، التى اضطر فيها إلى شرح وتبسيط ما كان يقصده بعد أن سئم سوء الفهم الذى يحيط به حيثما ذهب. وفى مطلع عام ١٩٤٦، وفى أعقاب برقيته الطويلة، عاونه جورج فورستال وزير البحرية فى العودة إلى واشنطن ليعمل بكلية الحرب الوطنية، أما وزير الدولة جورج س. مارشال فقد شجب ترشيحه لرئاسة هيئة تخطيط السياسة، ولم يكن لاعتراضات كينان على الالتزامات الكاسحة، التى قام عليها مبدأ ترومان أثر ملحوظ، فقد عم وشاع مفهوم الاحتواء فى أنحاء العالم، مما اضطره إلى أن يكتب مصححًا سوء الفهم الذى لازم هذا المفهوم، فقال: «لقد صدمتنى جفوة الأمريكيين الموروثة لاتخاذ قرارات محددة فى مشكلات محددة وإصرارهم على اتخاذ صورة عامة أو مبدأ يغلفون به أعمالهم ويبررونها». ولستة شهور سابقة وأخرى لاحقة، لم يكن لبيانى كينان أثر يذكر، وعلى حد تعبيره: «لقد مضى كل هذا يفصح عن مدى ما لهذا من أهمية تعلو على طبيعة ما يسفر عنه الواقع الحقيقى عندما يصبح الأمر متعلقًا بإصرار واشنطون على نظرتها للعالم، والمبادرة الذاتية للرسميين بها لمعرفتها أو معرفة طبيعتها». وظل كينان على رأيه هذا فى كل ما كتب عن سياسة الاحتواء التى اعتنقتها أمريكا فى أعقاب الحرب، وأحس بعد ذلك بأنه يمضى بعيدًا عن المسئولية، حتى لايصر على تصحيح الخطأ الذى ارتكبه المسئولون، سواء عن عمد أو عن سوء فهم بخصوص نظرية الاحتواء، التى ابتكرها لتقع بعد ذلك بين أيديهم ليستغلوها فى غير ما أراد.

ويصرح أيضًا فى لقاءاته المتتالية مع وزير الخارجية هنرى كيسنجر عما رآه فى العلاقات السوفيتية الأمريكية وما يعوز سياسة أمريكا الخارجية، وكان الحديث عن احتواء الكرملين. ففى حديث أدلى به كسينجر فى ٣ فبراير ١٩٧٦، أعلن: «لأول مرة فى التاريخ أصبح الاتحاد السوفييتى قادرًا على تهديد المناطق النائية إلى أبعد ما تمتد إليه كتلته الأوراسية، بما فيها الولايات المتحدة أيضًا». ومع التكنولوجيا النووية والنظام الدولى لما بعد الاستعمار «يعرب الاتحاد السوفيتى لأول مرة عن مصالحه وأهدافه العالمية شاقًا طريقه إلى الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا. وبالطبع كان فى ذهن كيسنجر إيران ومصدق، وكوريا وفيتنام، وعبد الناصر فى مصر، وأزمة الصواريخ الكوبية، بل إنه صرح بأن «أنجولا تمثل لأول مرة كيف تحرك السوفييت عسكريًا عبر هذه المسافة

البعيدة ليفرضوا نظامًا من اختيارهم، وللمرة الأولى تفشل الولايات المتحدة فى الوقوف أمام التحرك العسكرى للاتحاد السوفييتى خارج فلكه، ولأول مرة يتراجع الكونجرس عن قرار قومى، كان ينوى اتخاذه فى مشكلة الشرق الأوسط». وكانت العواقب وخيمة على حد قول كيسنجر، الذى رأى فى ذلك الفشل بادرة سوء لابد أن يكون ثمنها غاليًا فى المستقبل: «فإذا قيل إن إنجولا ليست بلدًا مهمًا، وليس للولايات المتحدة مصالح فيها، فإن ذلك يؤدى إلى السؤال التالى، إذا رأت الولايات المتحدة ألا تتصدى للكتلة السوفيتية، ورأت ألا تقف دون التدخل الكوبى، فماذا تكون مشاعر زعماء العالم إذا ما شرعوا فى اتخاذ قرار يتصل بأمنهم فى المستقبل؟ وما الخطوات التى يمكن أن تتخذها قوة عظمى لا تثير أى معارضة إذا ما كانت المناسبة التالية تؤدى إلى التدخل؟».

فى هذا الحديث مع كيسنجر، تجلت الدبلوماسية المرهفة والأخلاقيات الدمثة التى اشتهر بها كينان، فقد كانت استجابته مقننة كريمة عطوفة، صاغها على أساس من المبادئ خالية من أى تلاعب بنواحى القوة أو الضعف فى الأشخاص. فقد حمد لكيسنجر، أنه «مفكر لغة السياسة»، ويبدى الفروق بين احتواء التوسع السوفييتي فى الوقت الحاضر، وما كان عليه عام ١٩٤٧، عندما ظهرت هذه الكلمة لأول مرة، وسلم «بأن الاتحاد السوفيتى لديه القدرة الآن أكثر مما كان منذ ثلاثين عامًا، على إظهار قوته فى مناطق تبعد عن حدوده كثيرًا» وأخذ يذكر كيسنجر بما كان من مبالغات الدوائر العسكرية فى الولايات المتحدة عن قوة العدو. وبأسلوب غاية فى الكياسة، رأى أن يتسلح كيسنجر فيما يقوله بالقدرة والإفصاح والتحوط، وكانت نصيحته له:

«أن تدرك تمامًا أن الأماكن ليست سواء فى أهميتها من هذه الناحية. فمثلاً إن لكوريا وكوبا من الأهمية الاستراتيجية البالغة، لا للأمريكيين وحدهم ولكن لكافة القوى الكبرى الأخرى، وقد تكون للأماكن النائية بعض الأهمية الأستراتيجية المحلية ولكنها لا تؤثر فى ميزان القوى العالمى، وبالتالى فإن على المراقب للأمر أن يحسب مدى الخسارة والمكسب لأى قوة كبرى إذا ما أرادت أن تمد نفوذها إلى منطقة بعيدة عن حدودها، فالعجز عن احتلالها احتلالاً كاملاً أو التغلب على الحكومة الوطنية، واستغلال مواردها لصالح هذه القوى الدخيلة، يصبح مثارًا لمشكلات عديدة. على هذ الأساس، تصبح كوبا أشبه بحجر الطاحون الذى يطحن المال السوفييتى ... وليس ثمة داع لإحساس الولايات المتحدة بأى التزام لحماية أى قوة أخرى من انتحال مسئوليات يمكن أن تكون عبئًا ثقيلاً عليها. أما الأمر الثالث، فإنه يحتم على أمريكا أن

تلم بأمر حلفائها والقوى التى تعمل معها، فإذا جد صراع مدنى، فإن من اليسير قصر المعونة الأمريكية على جماعة معينة أو حزب من الأحزاب، فإذا ما كان حزبًا عسكريًا او سياسيًا، فإن ذلك من شأنه أن يصوغ مسلكنا نحوه. وليس من اليسير أن يكون النجاح حليف كل إنسان، مهما كان له أو لقى من عون خارجى. وأخيرًا فإن هناك من المواقع ما تحاول الولايات المتحدة أن تضع لها قدمًا فيها، وإن كان ذلك لا يتسنى لها إلا من خلال الرأى العام العالمى أو الإقليمى على الأقل: وهو ما تفتقده أمريكا وتعانى منه حين تبدو كما يبدو المنافسون تمامًا، الذين يثيرون باستعراضهم للقوة الحساسية عند الأطراف الأخرى».

وعلى الرغم من المتعة الفكرية الكامنة فى محاورات كينان السياسية، فإن الأصول العميقة لاتجاهاته وأفكاره وآرائه لا تكشف عن نفسها بأسلوب مباشر لأنه لا يخوض فى هذه المحاورات إلا فى مواقف أو مناسبات مصيرية تستدعى ذلك، لكنه فى كتاباته ومؤلفاته ومحاضراته كان حريصًا على إبراز وتقنين وتفسير هذه الأصول العميقة لفكره؛ بحيث لم تكن المواقف الراهنة أو العابرة سوى أمثله للاستشهاد بها. ففى كتابه «الدبلوماسية الأمريكية: ١٩٠٠ – ١٩٥٠»، الذى صدر عام ١٩٥١، وهو عبارة عن محاضرات ألقاها بجامعة شيكاغو خلال العام الأول لتركه خدمة وزارة الخارجية: يطرح سؤالاً محددًا: ما السبب فى فشل سياسة أمريكا الخارجية فى النصف الأول من القرن العشرين؟ ويرجع كينان هذا الفشل إلى النفور الفطرى الأمريكى من اتخاذ مواقف محددة لمشكلات محددة، وسعى السياسيين الأمريكيين المتواصل لبلوغ صيغ عالمية أو نظريات يغلفون بها ويبررون تصرفات خارجية، وكذلك الكراهية الأمريكية للتمييز بين المواقف؛ نتيجة للولع بالتوصل إلى معيار عام يحكم مختلف المواقف والأوضاع، عندما يتم اتخاذ القرارات المهمة بشكل تلقائى، وليس طبقًا لملابساتها وضروراتها وظروفها المحيطة بها، وبنفس المفهوم هناك ولع أمريكى لإلحاق أهمية عالمية لقرارات كانت ضرورية لأسباب محددة أو عابرة.

رأى كينان أن المبررات التى لجأت إليها الولايات المتحدة لدخولها معظم معاركها لم تكن كافية أو مقنعة تمامًا، ويعطى أمثلة على هذا الاتجاه من الحرب العالمية الأولى، إذ لم يكن كافيًا حين أرغمت الظروف الولايات المتحدة على دخول الحرب، تبرير ذلك بالأسباب المحددة لذلك، وإنما كان تقديم المجهود الحربى الأمريكى على أنه لجعل العالم – وليس أقل من ذلك – «مكانًا آمنًا للديمقراطية»، كما لم يكن كافيًا أو مقنعًا تبرير دخول الحرب العالمية الثانية بسبب مهاجمة اليابانيين لبيرل هاربر، وأن كلا من الألمان واليابانيين أعلنوا الحرب على الولايات المتحدة، إلا أن الولايات المتحدة لم

تشعر بالراحة إلا بتغليف مجهودها الحربى فى إطار عالمى وإضفاء تعميمات كونية على ميثاق حلف الاطلنطى. ويواصل كينان تخريجاته وتفسيراته فيربط بين هذا الولع الأمريكى بالتعميم الذى يصور أن كل ما تفعله الولايات المتحدة يرتبط بمصير العالم أجمع، وبين ما ظهر فى اعقاب الحرب العالمية الثانية من ميل أمريكى لتقسيم العالم بشكل حاسم إلى قسمين: العالم الحر والشيوعيين، وبذلك تجاهلت الولايات المتحدة أن القضية برمتها لا يمكن أن تكون مجرد مباراة أو صراع أو مواجهة بين فريقين، وذلك أن الأمر لم يكن يخلو من صراعات وتناقضات داخل كل فريق على حد سواء أكان فريق العالم الحر أو العالم الشيوعى.

وكعادة كينان فى حرصه على تفسير كل النوازع والميول بل والشطحات الأمريكية ، فإنه يرجع الميل الأمريكى لإضفاء العمومية والشمولية والعالمية على القرارات والمواقف وتجاهل التمايز والاختلاف، إلى أن الولايات المتحدة أمة يحكمها القانون أكثر مما تحكمها حرية الفكر أو التصرف أو القرار للسلطة التنفيذية الخاضعة لسطوة البيروقراطية، وإلى حرص الكونجرس الأمريكى على أن يقيد حرية تصرف السلطة التنفيذية، وعدم قدرته فى الوقت نفسه على متابعة قراراتها اليومية، ولذلك كان رجال الكونجرس يشعرون بالحاجة إلى قرارات عامة تحدد النطاق، الذى تطبق عليه هذه القرارات. وأيًا كانت منابع هذا الميل الأمريكى فإن كينان يراه ظاهرة سلبية ومعوقة فى بعض الأحيان؛ لأنه يشوش فهم الرأى العام للقضايا الدولية أكثر مما يوضحها له، وهو يعوق عملية اتخاذ القرارات التى تصدر طبقًا لمعايير تتصل جزئيًا فقط بالموضوع وربما لا تتصل به على الإطلاق.

أما كتابه «حقائق السياسة الأمريكية الخارجية» الصادر في ١٩٥٤، فيضم محاضرات كينان بجامعة برنستون، وفيها يحلل السياسة الخارجية من منطق أنها مجرد وسيلة وليست غاية، وأن أكثر ما يهم فيها هو ما يتناول شئون أمريكا داخل أراضيها، وليست الحكومة أكثر من كلب الحراسة الأمين على هذه الشئون الوطنية. وإن أخذ كينان يشير فى كتاباته الأخيرة إلى واجب الحكومة فى مقاومة الفساد، الذى يجتاح البيئة الاجتماعية، على أساس أن غاية الحكم أن يكون عونًا لمجتمع منظم على تحقيق ما يبتغيه. ويبنى على هذا هدفى السياسة الخارجية، وهما: حماية الشعب من أى تدخل عسكرى أو سياسى، وحماية الأمريكيين فى الخارج فى كل ما يضطلعون به من عمل خارج ديارهم، وهما وحدهما الهدفان الأساسيان اللذان ينبثقان من الأهداف الأصلية للمجتمع الأمريكى.

وسرعان ما تعلو النبرة النقدية عند كينان فى سباحته ضد التيار العام السائد، ويأخذ من خفايا التاريخ الأمريكى القديم دروسًا مستفادة تؤكد أن هذين الهدفين الأساسيين زرعًا مفهومًا محدودًا ومتواضعًا ومقيدًا للسياسة الخارجية، ولم يكن لمثل هذين الهدفين أن يؤديا إلا إلى قاعدة ضيقة للمزاعم المتضخمة، أو الأحلام الكاذبة، أو الاستعلاء الأخلاقى وغير ذلك من الظواهر التى لم تجعل من أمريكا أرض الخلاص أو الفرص السانحة، أو مجتمعًا تغدو إصلاحاته الاجتماعية دواء للعالم من كل داء، وحالت هذه الأهداف الأصلية ليحل محلها حلم كاذب يراود أمريكا ويشوبه سمة من البراءة القاتلة والجهل الراسخ بما يحدث فى بقية العالم. وكان كينان بذلك أول مفكر سياسى من مستوى رفيع، يثقب بالون ماعرف «بالحلم الأمريكى» الذى داعب مخيلة ملايين الأمريكيين، وظلوا يلهثون وراءه بلا جدوى لأنه لم يكن سوى وهم كما أثبت كينان.

ويشرح كينان كيف أنه فى أواخر القرن التاسع عشرحتى الثلاثينيات من القرن العشرين، ربطت أمريكا نفسها بأحكام عالمية واتفاقيات للتوفيق، وشبكة من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية بلغت سبعًا وتسعين، لم يكن منها غير اثنتين تتسمان بنوع من المعقولية والأمل، وفى حين كان هتلر يخطو إلى القوة دون أن يلحظه أحد، كانت أمريكا مستغرقة فى محادثات ومباحثات لا تنتهى للحد من التسليح وخطط لا تسفر عن شىء لإدانة العدوان. ومرة أخرى، أخذت أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية تشرع فى تنظيم عالمى، دون أن تلقى بالاً إلى سطوع نجم الاتحاد السوفيتى، وأنه يشكل تهديدًا جديدًا للتوازن الأوروبى. فلما بدأت الحرب الباردة، صحا الأمريكيون فجأة ولأول مرة على تلك الحقيقة المزعجة لعالم ما بعد الحرب، وعلى أن ذلك الشريك الجاد المستبشر قد اختفى، لتفاجأ أمريكا بنفسها فى مواجهة مسخ هائل غامض أكثر تهديدًا لها من كل الآخرين، وأنه يحتكم على نصف موارد العالم.

هكذا وضع كينان يده على تلك الحقيقة الأولى فى سياسة أمريكا الخارجية، حين لم تكن سوى خامة ناشئة لقوة منافسة تدين بالنظام الشيوعى. أما الحقيقة الأخرى فهى أهون وأكثر رحابة: هذا العالم غير الشيوعى الذى يتكلم أهله لغة سياسية مألوفة، عالم فيه مكان لأمريكا وأحلامها، والذى لن يتكرر فيه ما فعلته ألمانيا وايطاليا لأن مأساة الحرب العالمية الثانية كانت أفدح من أى تصور. ويسجل كينان دوره فى صياغة فصل مهم من السياسة الخارجية الأمريكية لأوروبا بعد الحرب، وهو المشروع الذى وضع أساس النهوض الاقتصادى للدول الأوروبية التى دمرتها الحرب التى أتت تمامًا على كيانها الاجتماعى. وهو الوضع الذى وضعه تشرشل وهو يجيب عن تساؤل: ما هى

أوروبا الآن؟ وأجاب «إنها كوم من الحطام ومقبرة للموتى وأرض خصبة للطاعون والكراهية». وكان تعليق كينان على هذه الفوضى وما يسميه الخبل والانفصام العقلى أن قال:

«فإذا كان ثمة درس عظيم، علينا نحن الأمريكيون، أن نتعلمه، فإنه درس عن النهج الذى تسلكه السياسة الخارجية، فحين نتناول الشئون الخارجية، فإن علينا أن نتناولها على طريقة البستانى وليس على طريقة الميكانيكى، وأن نرى تطور الحياة الدولية وكأنه عملية عضوية لا ميكانيكية».

وما يقوله كينان فى هذا الصدد يصلح لنظرية يمكن تطبيقها فى كل مجالات السياسة، لأن السياسة من العلوم الإنسانية التى يمارسها بشر لا يفكرون ولا يسلكون بطريقة آلية، وإنما تنهض العلاقات فيما بينهم على تفاعلات عضوية طبقًا لعوامل التأثير والتأثر المتبادل فى شكل دائم ومتواصل ومتتابع، سواء بالسلب أو بالإيجاب. وعليهم أن يتعلموا كيف تعمل هذه القوى والأسباب التى أدت إلى توليدها، وأن يتخذوا منها أداة ناجحة للعمل سواء لهم أو لغيرهم. كما يحثهم كينان على أن يتعلموا الصبر أيضًا، وألا يتوقعوا أبدًا أن تأتيهم كل مراكز الثقل الأخرى مستسلمة لمعايير قاهرة أو مشوشة، وما أكثرها فى مجال السياسة الأمريكية. ففى زمن المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، كان هناك من يرى أن تكون غلبة الاتجاه الأمريكى على السوفييت بالمواجهة المباشرة، فى حين يرى كينان أن العكس هو الأصح، لأن السوفييت كانوا يرقبون ولا يتأثرون إلا بما جرى داخل أمريكا ذاتها وبما يعمله الأمريكيون أكثر منهم بما يقولون.

وفى كتابه «روسيا: الذرة والغرب» (١٩٥٧)، يناقش كينان وضع الاتحاد السوفييتى فى العصر النووى، ويذكر سامعيه فى بريطانيا (حيث كان يلقى محاضراته التى كانت أساسًا لكتابه هذا) وكذلك أمريكا بطبيعة الحال بأن الغاية من القوة العسكرية والتهديد النووى أن تكون درعًا لإدراك جديد ووعى شامل للوسائل والغايات التى يجب أن تتبعها المجتمعات الغربية، وعلى الدفاعات الأمريكية والبريطانية أن تتيح لهذه البلاد بعض الوقت حتى تستطيع أن تغير من وضعها لكى تأخذ مواقعها على حافة هذا العدو بنظامه الجماعى القوى. ونشرت صحيفة «التايمز» اللندنية فى افتتاحيتها، تقول عن كينان: «إن رجلاً واحدًا بإحساسه القوى وفكره الخلاق، قد استطاع أن يحقق تغييرًا سياسيًا، إنه هذا التيار الذى يتحرك تحت الثلوج».

رأت الصحيفة أن ريادة كينان تكمن فى دعوته إلى وحدة أمريكية إنجليزية وأوروبية أقوى وأعمق، وأن يسحب كل من الفريقين قواته من قلب أوروبا،

فالمشكلة الألمانية قابعة فى أى تسوية حول أوروبا. وطالب كينان بأن يعالج مستقبل ألمانيا بكثير من المرونة والصراحة، وكان على النقيض من أقرانه فى وزارة الخارجية ممن يرون أن أى محاولة لسحب القوات الغربية. ستترك أوروبا مجردة من أية دفاعات أمام أى تقدم سوفييتى، وقد أغضبت مقترحاته قادة ألمانيا الغربية وجلبت سخطهم عليه، ضمن حلقات سلسلة سوء الفهم الذى عانى منه كينان الأمرين فى معظم مراحل حياته، فلم يكن قصده أن يترك ألمانيا الغربية عارية فى مواجهة أى تقدم سوفييتى، لأن فهمه لموازين القوى فى أوروبا كان أعمق وأبعد من اجتهادات أقرانه فى وزارة الخارجية. فقد كانت ألمانيا مربط الفرس سواء بالنسبة للولايات المتحدة أو أوروبا الغربية، وكانت القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية في مواجهة مستمرة ليل نهار فى برلين مع القوات السوفييتية على جانبى الجدار، الذى قسم برلين نفسها إلى برلين غربية وأخرى شرقية. ولم يكن يحق لقادة ألمانيا الغربية أن يمارسوا هذا الغضب الساخط على كينان، لأنهم هم أنفسهم رأوا الأمريكيين، وهم يوقعون اتفاق هلسنكى الذى يعترف بالحدود المشروعة لنفوذ كل من الشرق والغرب، ولذلك كانت رؤى كينان لأوروبا الغربية أكثر صدقًا من نقاده، كما كانت أحكامه سديدة ومحقة.

ومؤلفات كينان عن روسيا كانت ثمرة السنوات التى قضاها فى ربوعها وأكثرها عمقًا وموضوعية لمن يتخصصون فى الشئون السوفييتية. وقد فاز كينان بجائزتى بانكروفت، وبوليتزر، وشهادة الكتاب القومى الأمريكى عن كتابه «روسيا تتخلى عن الحرب» (١٩٥٦)، كان الجزء الأول منه عن «العلاقات السوفييتية الأمريكية: ١٩١٧ – ١٩٢٠»، تبعه الجزء الثانى «قرار التدخل». وواصل دراساته للتاريخ الدبلوماسى فى أواخر القرن التاسع عشر، فى حين قلت كثيرًا أحاديثه عن المسائل والقضايا ذات الأهمية المعاصرة. وفى عام ١٩٦٨ أصدر كتابه «الديمقراطية والطالب اليسارى»، وكان عبارة عن حوار مع المتطرفين من الطلاب اليساريين، كشف فيه عن قصورهم عن تحقيق أو تحديد هدف بناء، يعملون على تحويله إلى واقع ملموس. كما ظهر جزءان من مذكراته، الأول عام ١٩٧١ والثانى عام ١٩٧٢، وسرعان ما أصبحا مرجعًا لكل دراسة أوحديث عن الحرب الباردة.

وفى عام ١٩٧٧ أصدر كتابه «غيوم الخطر: حقائق معاصرة عن سياسة أمريكا الخارجية» الذى قدم فيه توصياته عن السياسة الخارجية لحكومة كارتر القادمة، وكل ما جاء فيه ألقى أضواء فاحصة على العلاقات السوفييتية الأمريكية، ودعا فيه دون إبهام أو غموض إلى مزيد من الجهد البالغ لنزع رداء التنافس العسكرى الأحمق، والسعى بكل السبل لنزع السلاح، لكى تنقشع تلك الغيوم المحيطة بالبشرية من كل

جانب. كما قام بتحليل مشكلات السياسة الخارجية فى مناطق العالم الكبرى والحساسة، وأيضًا المشكلات العاجلة التى تهدد الاستقرار العالمى، كما تناولتها مباحثات سولت، وحقوق الإنسان، وسياسة الوفاق. وأراد أن يستخلص إطارًا كبيرًا متماسكًا لشتى الاتجاهات التى سلكتها سياسة أمريكا الخارجية، وإذا كان قد حقق ثمة نجاح فذلك لأنه مهد الطريقة لصانعى السياسة فى المستقبل، أما إذا كان الفشل نصيبه، فذلك لأنه وضع نسقًا من الأفكار ذات الأبعاد المركبة والأعماق المتعددة التى تقتصر على أهل الاختصاص.

وظل كينان واثقاً من الأثر البالغ العنيف للرأى العام على السياسة الخارجية لإيمانه بنبضه الواقعى الصادق. وشجب حرص بسمارك على تقييد المناقشات التشريعية للسياسة الخارجية ورفض أى مناقشة برلمانية للتقديرات العسكرية، وهو اتجاه، كما توهم بسمارك يؤدى إلى خفض الإنفاق بنسبة ١٠ إلى ٢٠ فى المائة. لكن كينان أوضح أن هذا التوجه من شأنه أن يفرض سطوة الصناعة العسكرية على السياسة الخارجية، مما جعله يصرح بأنه لا يرى حلاً للمشكلات الكامنة فى نظام أمريكا السياسى، إذ إن أمريكا لا تستطيع إدارة علاقاتها الخارجية دون حلفائها، بالإضافة إلى أن هذه العلاقات تتشابك وتتعقد فى مناقشات الكونجرس وعلاقات أعضائه الوطيدة بأساطين الصناعة العسكرية.

ولم يتردد كينان لحظة فى إظهار حرصه على الدور الحيوى والضرورى الذى تلعبه الأخلاقيات في حياة الشعوب والدول. فقد كان فى أعماقه مفكرًا أخلاقيًا من طراز رفيع وعنيد فى مواجهة المتلاعبين بالقيم الأخلاقية. وبراه الأصدقاء المقربون منه، على قدر كبير من الحماسة والصدق والولاء أكثر مما يراه الناس عامة، وبرغم تحفظه وزهده فى الحديث، فإنه كان وثيق الصلة بمن يجهلم ويثق فيهم، ولم يكن هناك من يشك فى أنه يتمتع بقدر كبير من الأصالة والذكاء واللماحية والنظرة الثاقبة. ولم يكن من السهل العثور على قرين له فى إدراكه للسياسة الخارجية فى أمريكا فكرًا وعملاً. فلم يتوقف طوال حياته عن تحليله ونقده لجوانب القصور فى الحياة السياسية الأمريكية، وإدراكه لعناصر الضعف الكامن فيها ثم شعوره بالعجز إزاءها وعدم إمكان تصحيحها أو اجتذابه للرأى العام كى يساعده فى ذلك. ويقال إن هذا العجز عن الإصلاح والتصحيح كان مصدر الإحساس الذى لازمه بالإحباط والضيق والتشاؤم.

ونظرًا لثقافته الشاملة والعميقة، فإن تناول كينان لظواهر الحياة الأمريكية لم يقتصر على أمواج السياسة المتلاطمة، بل امتد ليشمل العلاقات الجدلية بين السياسة والحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية والإعلامية والإنسانية بصفة عامة.

فهو يرد ما يعتبره تراجعًا وتخلفًا معنويًا وأخلاقيًا للمجتمع الأمريكى إلى سيطرة صناعة الإعلان على عملية الاتصالات والمعلومات، وهو ما اعتبره شرًا مستطيرًا ومخربًا للعقل الجمعى لأنه يلوث المضمون الكلى للمعلومات التى تتدفق على المجتمع وتفسد وتسىء استخدام ذكاء المتلقى، سواء أكان قارئًا أم مستمعًا أم مشاهدًا، وتحول انتباه الشعب عن الحقائق. وحتى المناسبات الرياضية يراها كينان تتحقق من أجل الكسب المادى لدرجة أنها تبدو فى شكل أقرب إلى المباريات بين العبيد، والتى كانت تجرى لمجرد إمتاع الناس، خاصة فى فترة تدهور الإمبراطورية الرومانية.

ولم يركز كينان اهتمامه على السياسة الخارجية فحسب، بل شمل أيضًا السياسة الداخلية؛ لأنه يعتبرهما وجهين لعملة واحدة، إذ إن النظام السياسى الداخلى فى الولايات المتحدة يؤثر بعمق فى ممارسة السياسة الخارجية، ويفرض عليها قيودًا سواء على خطوات المراهنة أو على أهدافها القومية الاستراتيجية على المدى البعيد. وهو يقدم الدروس المستفادة من خبرته السياسية وتجربته الدبلوماسية؛ لكى يوضح إلى أى مدى يمكن أن تقع الأضرار والسلبيات التى تتسبب فيها آليات النظام الداخلى وتعتور أهداف السياسة الخارجية، لدرجة أنها تجعلها سياسة غير متماسكة وغير متسقة وغير متبلورة. لكن كينان لا يعنى بذلك أن تلجأ إلى سياسة العزلة التى مضى زمنها إلى غير رجعة لاستحالة تطبيقها، وإنما يقصد أن تتبع أمريكا سياسة الاهتمام بشئونها الخاصة بقدر الإمكان، وفى الوقت نفسه لا تصرف نظرها عن التزاماتها الدولية خاصة تجاه حلفائها الأوروبيين. وإن كان يحرص على ألا تتحمل الولايات المتحدة التزامات جديدة، وأن تخفض بشكل تدريجى التزاماتها القائمة، وأن تتجنب التورطات على المدى البعيد.

ويواصل كينان سباحته ضد التيار السائد الذى يتغنى إعلاميًا وسياسيًا بالهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم، فيبرر دعوته تلك بأن أمريكا ليست لديها ما تعلمه للعالم، ويتحتم عليها أن تعترف أنها لا تملك الإجابة عن مشكلات بل ومعضلات المجتمع الإنسانى فى العصر الحديث المعقد المتشابك الزاخر بالمتناقضات. وهذا بالإضافة إلى الخصوصية التراثية والثقافية والبيئية والسلوكية التى تميز كل مجتمع على حدة، والتى لاتستطيع الولايات المتحدة أن تفهمها وتستوعبها جيدًا، خاصة أنها برزت على سطح الوجود كدولة منذ ما لا يزيد على قرنين، وأتت من خلفية حضارية تختلف تمامًا عن خلفيات الدول التى تسعى للهيمنة عليها. ولذلك يرى كينان أن أفضل طريقة يمكن أن تؤثر بها الولايات المتحدة فى العالم هى القدوة وليس الضغط، فهو يتمنى أن تحاول بلاده التأثير فى العالم بقوة النموذج، وإلى المدى الذى ترغب فيه

الشعوب الأخرى أن تتبناه وأن تتبعه إذا رأت أن تأخذ به وتطبقه على نفسها. وتتجلى جرأة كينان الفكرية فى أنه يعلن على الملأ، وبمنتهى الإصرار، رفضه لمفهوم عالمية التجربة الأمريكية، إذ إن الخبرة القومية الأمريكية لم يشارك فيها أى بلد فى الماضى، كما لن يشارك فيها أى بلد فى المستقبل. فهى خبرة لا مثيل لها وغير قابلة للتطبيق على أى مجتمع آخر.. هكذا كانت حكمته السياسية بعيدة النظر إلى أقصى حد.

ولا تقتصر نظرة كينان النقدية على معطيات الحياة الأمريكية فحسب، بل تمتد لتشمل أيضًا الحضارة الغربية كما تتمثل فى بلاد أوروبا الغربية، التى يرى أنها أصبحت مدمنة لمتعها المادية، ولم تعد أمامها أهداف تسعى لتحقيقها سوى حياة الرفاهية والرخاء؛ بحيث أصبح من الصعب عليها أن تبذل التضحيات من أجل تطوير حياتها حضاريًا واجتماعيًا وتكنولوجيًا وإداريًا. ويتخذ كينان من بريطانيا مثلا على ذلك، إذ إنها عجزت عن تحسين إنتاجها الصناعى بدليل أنها استعانت بالخبرة التكنولوجية اليابانية خاصة فى مجال صناعة السيارات، كما أنها عجزت عن تطوير نظم النقابات العمالية على أسس حديثة. كما يدلل كينان على هذا التدهور بعجز بلدان مثل الدانمارك أو هولندا عن وضع حدود وقيم، تتصدى لغزو المواد والدوافع الجنسية التى اجتاحت مجتمعاتهم. ويجد فى هذا العجز أو التدهور اهتزاز الثقة فى النفس واختلاط المفاهيم والقيم وهذه ليست مجرد أعراض عابرة مرتبطة بفترة زمنية معينة، بل يرى فيها كينان بوادر لا تبشر بالخير؛ لأن التحدى الذى يواجه أوروبا ضخم وشامل، وأن التصدى له ضعيف بل ومؤسف، وربما غير موجود أصلاً.

بهذه النظرة الثاقبة والحساسة والدقيقة للأحداث التى تجتاح العالم، لم يكن من الممكن أن يظل كينان متباعدًا نائيًا فى برج عاج من صنع فكره؛ فلم يستطع التخلص من إحساس ممعن بأزمة عالمية، لا تستطيع الأمم أن تتجاوزها. كان فكره كالفيلم الحساس الذى تنطبع عليه شتى التأثيرات العميقة والتيارات الجارفة والقوى، التى لاتتوقف عن الحركة والتفاعل والصراع. وكانت أفكاره ورؤاه من العمق والشمولية، وتحليلاته من الدقة والموضوعية، بحيث لم تتصور أبدًا أن يحتفظ بها لنفسه على سبيل التأملات الشخصية. ولذلك كان يبدو فى أحيان كثيرة، وكأنه فى صمته الجليل يحمل هموم العالم أجمع على كتفيه. كان تجسيدًا حيًا للجدية الحضارية التى لا تعرف أى نوع من تشتت الطاقة أو الجهد أو الفكر أو الوقت، والتى كانت سمة أساسية لكل مراحل حياته العملية، والتى جعلته متأكدًا من أن السياسة الخارجية الأمريكية بل والمجتمع الأمريكى برمته يعانيان من مرض عضال، تنتشر أعراضه المتعددة فى شتى المجالات.

وإذا كان معاصره ولتر ليبمان الصحفى والكاتب الرائد قد قال ذات مرة: «إن فلسفة الإنسان هى تاريخ حياته، يمكن أن تقرأ فى قصة صراعه مع الحياة»، فإن الأمر يبدو مختلفًا مع كينان الذى جرفته تيارات العمل السياسى والدبلوماسى، فلم تترك له فرصة التنظير لفلسفة خاصة به. يقول ببساطة: «لم أقم بأى محاولة لتلخيص النظرة التى كانت وراء هذه الخبرات المختلفة. ولكى أنجز هذه المهمة، فكان لابد من الابتعاد عن أسلوب صياغة المذكرات؛ حتى يتسنى لى أن أقوم ببحث أو دراسة عن فلسفتى، وربما يتألق جانب من هذه الفلسفة من خلال ما رويته عن الفترات الماضية». ومع ذلك فإن من يقرأ مذكرات كينان التى سجل فيها مراحل حياته، من السهل أن يرصد وجهة نظر متسقة وشاملة، تكاد تكون عمودًا فقاريًا لكل الأفكار والتوجهات والتحليلات والتصرفات التى قام بها، وكلها تصب في منظومة فكرية تشكل نظرية فلسفية متكاملة. ورغم أن تواضعه يجعله يؤكد دائمًا على أنه مجرد مواطن وضع أفكاره وخبراته فى خدمة وطنه بصفة خاصة والبشرية بصفة عامة، فإنه فى لمحات ومضت فى مذكراته كشفت عن اتجاه ما أسماه «التعبير عما يمكن وصفه بفلسفة شخصية».

وكانت حياة كينان إثباتًا عمليًا للمبدأ الذى يؤكد أنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح. فقد كان هناك ما يشبه الخصومة أو العداء بينه وبين الكونجرس؛ نتيجة لانتقاده المستمر لتدخل المجلس فى السياسة الخارجية الأمريكية والتوجهات الفكرية والثقافية لأعضائه المتربصين به. ورغم سباحته المتفردة ضد التيار السائد والتى استمرت حوالى ستين عامًا، فقد كان كينان فى مقدمة من دعتهم لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ للتحدث عن العلاقات السوفييتية الأمريكية ومستقبلها بعد التحولات التى أتى بها جورباتشوف، فقد عقدت جلسة استماع لهذا الغرض فى ٤ أبريل عام ١٩٨٩، بدأت بتقديم السناتور جوزيف سايمون لكينان بقوله:

«أود أن أعرب لك عن التقدير والإعجاب للجهود التى بذلتها طوال حياتك لترسيخ قيم الفكر والقوة، التى تصدر عن العقل فى السياسة الخارجية الأمريكية. صحيح أن آراءك ووجهات نظرك لم تلق إصغاءً دائمًا خلال الستين عاما الماضية، رغم أنك عبرت عنها بوضوح وبلاغة وبنظرة شاملة للتاريخ، وبالوضوح الذى لم يقدر على التعبير بـه سوى قلة من أقرانك. وقد فعلت هـذا بغض النظر عما هو شائع وسائـد من أفكار وتوجهات سياسية، وفي اعتقادى أنك بذلك قدمت مساهمة ضخمة لأمتـك، وأحييك عـلى هـذا وعلى تكريس نفسك للخدمة العامة التى مازلت تواصلها».

كانت حياة كينان سباحة مستمرة ضد التيار، لكن الصراع الذى حرص على أن يكون صامتًا أو هادئًا بقدر الإمكان حتى فى ذروة خلافه مع عناصر الدبلوماسية الأمريكية بصفة عامة وأعضاء الكونجرس بصفة خاصة، لم يشك في ضرورة أن تكون الدبلوماسية قوة خير إيجابية فى شئون العالم؛ بحيث تخدم قضية علاقات أمريكا بالعالم، وكان هذا في نظرة مسئولية على أكبر درجة من درجات الأهمية والجدية. لكن التيار المضاد سرعان ما كان يطغى حين تبدأ المصالح الحزبية والاقتصادية تتدخل وتعبر عن نفسها في الحياة السياسية الداخلية، وأيضًا حين تتسلل إلى العملية الدبلوماسية وتؤثر فيها بالسلب، حين تفتح فيها ثغرات هى فى غنى عنها. وقد عبر كينان عن موقفه من هذه التوجهات الانتهازية بصرامة قل أن توجد فى أسلوبه الدبلوماسى الرقيق حين اعتبر هذه الانتهازية عنصر إفساد، لا يمكن التسامح معه بأية حال من الأحوال.

وقد واصل كينان تركيزه على دراسة وتحليل قضية العلاقة بين السياسة الداخلية الأمريكية وممارسات الدبلوماسية الأمريكية، لدرجة أنها جعلته يصل إلى نتيجة مؤداها «المفارقة المأسوية» أو «التناقض المأسوى». ويفسر كينان المصطلح بأن الموظف الدبلوماسى يربى على الاعتقاد بأنه يخدم المصالح القومية للبلد ككل في علاقاتها الخارجية، ورغم هذا الاعتقاد فإنه يجد نفسه يعمل لبشر ليس هذا هو اهتمامهم الأساسى، الذى يتمثل أساسًا فى الشئون الداخلية والمصالح التى يدافعون عنها، والتى لا يمكن اعتبارها وطنية أو قومية على الإطلاق لأنها تتناقض دائمًا مع متطلبات دبلوماسية وطنية وعقلانية. وكانت النتيجة أن الدبلوماسية الأمريكية نادرًا ما تدار فى اتجاه أهدافها الواضحة التى غالبًا ما تطمسها المصالح الراهنة والآنية للقائمين على إدارتها. أما فى الأحوال التى تدار بها حقًّا في اتجاه الأهداف الحقيقية للسياسة الخارجية، فإن هذا التوجه الإيجابى والوطنى يبرز حين لا تكون المسائل والقضايا الداخلية مرتبطة بها بشكل سافر. أما فى الظروف الاستثنائية التى تخلقها الحرب والأخطار الحقيقية المترتبة عليها، فإن الدبلوماسية الأمريكية تسنح لها الفرصة لكى تتحرك تجاه أهدافها المنشودة المرتبطة بالأهداف القومية والاستراتيجية، التى تعمل القوات المسلحة على تحقيقها. أما فيما عدا هذا، فإن كينان يلقى بالحقائق المرة فى وجه الجميع عندما يقول إن سياسة واشنطن الرسمية فى الظروف العادية تميل إلى ركوب موجة أى شىء يحدث فى أى مكان فى العالم لمجرد إثبات وجودها، الذى تحرص على تحويله إلى هيمنة على العالم أجمع. هنا تبرز المفارقة المأسوية أو التناقض المأسوى لأن أهداف الدبلوماسية الأمريكية، وبالشكل الذى يربى ويدرب الدبلوماسى المحترف

على رؤيتها، تصبح متناقضة مع تلك التى تنص عليها التعليمات التى يتلقاها من حكومته. وتتأكد المأساة عندما يعجز عن تحقيق ما يعتبر أنه أهداف لا تحظى بتأييد حكومته، وبالتالى تصرف الأطراف المعنية نظرها عن هذه الأهداف، بعد أن أثبتت المعطيات والملابسات الراهنة أنها أصبحت غير ممكنة التحقيق.

ولا يتردد كينان فى تعرية سلبيات الكونجرس؛ خاصة فى مجال آليات إصدار القرار، إذ إن عضويته فى المجلس لا تعنى انحيازه إليه بصرف النظر عن أى اعتبار، وإنما تعنى فى المقام الأول نقده بهدف تصحيح إعوجاج مساراته. فيقول مثلاً إن اشتراك الكونجرس فى عملية صنع القرار لا يقلل فقط من خصوصية القرار، وإنما يصيب هذه العملية بدرجة عالية من الجمود وعدم المرونة؛ خاصة إذا كان الموضوع المطروح لاتخاذ القرار من النوع الفنى المعقد والمتشعب، ويحتاج إلى فحص علمى دقيق وليس مجرد إبداء رأى سياسى عابر. وهذا من شأنه أن يجرد صانع السياسة من إمكانية المبادرة وميزة المفاجأة والقدرة على الاستجابة الحساسة والسريعة لما هو غير متوقع. ويضاعف من هذه السلبيات بل والأخطار. إن الكونجرس في نظر كينان معرض أكثر من الجهاز التنفيذى ومن وزارة الخارجية؛ للتأثر بل والانقياد لقوى الضغط والأقليات الحريصة على التأثير فى السياسة الخارجية لصالح اهتماماتها الخاصة المحدودة. ويعقب كينان على ذلك بقوله «إنه حين يحدث هذا، فإنه يعنى ببساطة أن سلطة الحكومة الأمريكية المخولة لها للتحرك والتصرف في البيئة الدولية يساء استخدامها، وتنحرف عن أهدافها لأغراض سياسية خاصة بفئات داخلية، وتكون النتيجة أن أفعالنا فى المجال الخارجى، وخاصة فيما يتصل بالسياسة القومية العامة وأهدافها العاجلة والآجلة، تصاب بعدم الاتساق وفقدان التماسك وضعف الفاعلية أو حتى التناقض مع هذه الأهداف».

ولاشك أن كينان يعد من أعظم نقاد السياسة الأمريكية، فهو لا يتردد فى كشف سلبيات السياسة الخارجية لإصراره على إرضاء ضميره وفكره العلمى الموضوعى قبل إرضاء الآخرين. لم يبحث فى حياته عن الشعبية والانتشار بركوب الأمواج المواتية، بل كانت حياته سباحة متصلة ضد التيار السائد، عندما يفقد الرؤية المستقبلية وينحرف عن المسارات القومية الكفيلة بتقدم الأمة. ولذلك يوضح بصراحة أن هذه السلبيات لا تشمل النطاق الممكن للممارسة السياسية الخارجية فحسب؛ خاصة عندما تضيق من نطاقه وآفاقه، بل تقدم إغراءات للقادة والزعماء الأجانب وممثليهم للحصول على تنازلات، بل وامتيازات من الولايات المتحدة لا من خلال القنوات الدستورية للرئيس أو وزارة الخارجية، وإنما من خلال اللجوء إلى الأبواب الخلفية

والدهاليز الخفية حيث تتبع قوى ضغط أمريكية خاصة وأعضاء وشخصيات فى الكونجرس تتفق أهدافهم معهم.

ويكشف كينان عما يسميه بالعجز النسبى الذى يصيب السياسة الأمريكية، ولايتمثل فى القيود التى يفرضها الكونجرس فحسب، بل توجد قيود أخرى بعضها دستورى وبعضها الآخر يتعلق بأنماط من التفكير التقليدى الضيق، إذ يبرز بعضها نتيجة لآليات النظام السياسى، ويتنوع البعض الآخر طبقًا لآثار مواقف تجد أمريكا نفسها فيها. وطالما أنه من الصعب أو من المستحيل إزالة هذه الحدود والقيود لأسباب عديدة، فإن كينان يفرض على السياسة الأمريكية أن تأخذ فى حساباتها عواقب هذا العجز النسبى، وأن تقبل وضعًا راسخًا لا مفر منه، يتمثل فى الحدود الصارمة على ما يمكن للسياسة الأمريكية تحقيقه، عندما تمارس تأثيرها فى مجرى الأحداث الدولية. ولذلك لا معنى للغطرسة أو العجرفة التى تبدو فى التصرفات الأمريكية فى أحيان ليست قليلة، إذ ينصح كينان الساسة الأمريكيين بأن يعالجوا مشكلات السياسة الخارجية بتواضع نسبى وبوعى موضوعى، وبإدراك أن مواردها وإمكاناتها فى التأثير على مجرى الأحداث الدولية ليست بلا حدود، وهذا لا يعنى سوى تخفيض أمريكا لالتزاماتها الخارجية إلى الحد الذى لا غنى لها عنه.

ويواصل كينان نقده الصريح والموضوعى فيقول إن النظام السياسى الأمريكى فى جوانب كثيرة منه مصمم بشكل لا يسمح لقوة عظمى أن تتصور فى نفسها القدرة على قيادة العالم، من خلال وضعها لسياسة خارجية كفيلة بأداء هذه المهمة. ولذلك كثيرًا ماكرر كينان مناداته للسياسة الخارجية الأمريكية؛ لكى تستوعب الدروس المستفادة من هذه الظروف والملابسات التى تشكل حدود قدراتها وإمكاناتها فى مواجهة مشكلات العالم الدولية، التى لابد أن يكون منها ما تعجز الولايات المتحدة عن حله، إذ إن لهذه المشكلات أعماقًا لن يكون من المفيد أو الفعال للسياسة الأمريكية أن تورط نفسها فيها، فثمة معضلات فى مناطق أخرى في العالم يجب أن تجد حلولها بعيدًا عن المساهمة الأمريكية، التى من العبث اعتبارها قاسمًا مشتركًا فى كل مناطق العالم. وبالطبع فإن كينان لا يعنى بهذه الدعوة أن تعود الولايات المتحدة إلى سياسة العزلة، التى اتبعها الآباء المؤسسون فى المراحل الأولى لإنشاء الولايات المتحدة، وإنما يعنى دعوة للتواضع فى النظرة القومية وإلى وعى أكثر واقعية بحدود الكيان السياسى الأمريكى وإمكاناته، وانضباط أكثر للنفس بدلاً من شطحات الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين، والتى أوقعتها فى مآزق وأزمات، كانت هى فى غنى عنها تمامًا.

وكل هذه الآراء والتوجهات التى نادى بها كينان، كانت دروسًا مستفادة، سواء من دراساته وأبحاثه الأكاديمية أو من خبراته الدبلوماسية الطويلة والعريضة والعميقة، مثل تجربته عندما كان سفيرًا للولايات المتحدة فى يوغسلافيا فى عهد الرئيس جون كينيدى، والتى عانى فيها الأمرين من تدخل الاعتبارات الداخلية والحزبية فى السياسة الخارجية الأمريكية ودبلوماسيتها؛ فقد اكتشف أن المعضلة ليست مقصورة على تغليب الكونجرس وأعضائه لاعتباراتهم الحزبية ومصالحهم الانتخابية على المصالح القومية وأهداف السياسة الخارجية فحسب، بل تجلت المعضلة أيضًا فى ضعف المستويات العلمية والثقافية لهؤلاء الأعضاء. ومن هذا المنطلق قرر أن نقده لتدخل الكونجرس لا يعنى نقد النظام الديمقراطى أو اعتراضه على أن يصنع الشعب قراراته بنفسه، وإنما اعتراضه على المستويات العلمية والثقافية المتدنية لمن يرشحون أنفسهم للانتخاب، فلا يعقل أن يكون الثراء هو السلاح الأساسى فى خوض المعركة الانتخابية والفوز فيها، دون أى اعتبار للكيان الفكرى أو الحضارى لصاحب الثروة. ولا يمكن تجنب مثل هذا الوضع غير الحضارى إلا بضمان اختيار الأشخاص الذين سيرشحون أنفسهم من بين أفضل الرجال، وليس «من السوقة أو الخاملين أو البلداء وغير المتعلمين»، على حد قول كينان الذى لا يعنى بهذا نوعًا من الاستقراطية الموروثة، وإنما الأرستقراطية القائمة على الجدارة والاستحقاق.

وبالإضافة إلى اهتمامات كينان بظاهرة تأثير الاعتبارات الحزبية والمصالح الخاصة على فرص نجاح وإمكانات السياسة الحزبية، ركز اهتمامه وبشكل أكثر إلحاحًا على قضية التسلح النووى وأخطاره، وخاصة عندما اتخذت الولايات المتحدة هذه النوعية ذات الخطورة البالغة من التسلح أساسًا لسياستها الدفاعية وتصورها لاستراتيجية الأمن الأمريكى، الذى يعتمد على هذه الطاقات التدميرية بلا حدود. وكان الكتاب الذى صدر لكينان عام ١٩٨٢ بعنوان «هوس الأوهام النووية» بمثابة تسجيل لرحلة كفاحه فى التنبيه إلى أخطار التسلح النووى واستراتيجية عقلانية لنزعه. كما حذر من أن بناء موقف دفاعى على أساس سلاح انتحارى، من شأنه أن يؤدى فى المدى الطويل إلى إصابة السياسة القومية بالجمود والشلل وبالتالى تقويض تحالفاتها التى تحتاج إلى مرونة متجددة، واضطرار كل طرف بشكل متصاعد فى الخطورة إلى سباق تسلح لا أمل فيه. لكن الإدارات الأمريكية رفضت كل دعوات كينان؛ بحجة أن التخلى عن السلاح النووى يجرد الولايات المتحدة والتحالف الغربى من عنصر رادع لأية تهديدات محتملة، وخاصة تهديد القادة الأمريكيين لدعوة كينان وإدراكهم أنه ليس هناك نصر فى حرب، تستخدم فيها هذه الأسلحة النووية فإنها تتكدس يومًا بعد يوم.

ويصل كينان من هذه المحصلة الخطيرة إلى ما يمكن تسميته «بالهوس العسكرى». فقد اقترن تحذيره من الطاقات التدميرية للأسلحة النووية، وخطأ الاعتماد عليها فى بناء الاستراتيجية العسكرية، وبالتالى رفع سباق التسلح العالمى، اقترن بالتحذير من صبغ التفكير الأمريكى بالصبغة العسكرية التى امتدت لتؤثر فى المجتمع الأمريكى أيضا، مما أدى إلى انحراف خطير لمسار الاقتصاد القومى، عندما اعتاد الأمريكيون إنفاق جزء كبير من دخلهم القومى على مصانع الأسلحة، وتصديرها فى إطار مؤسسة عسكرية تكاد تكون دولة داخل الدولة . وكان هذا بمثابة نزيف للطاقة الإنتاجية الفعلية والاقتصاد الأمريكى، الذى ظل يفقد كل عام عشرات البلايين من الدولارات، التى يمكن أن توجه إلى كل أنواع الاستثمار والإنتاج المدنى.

وتتمثل المأساة فى نظر كينان أن هذا الكيان العسكرى الراسخ لم يعد فى الإمكان فصله عن كيان المجتمع؛ حتى يمكن حصاره والتحكم فيه والإقلال من هيمنته وخطره، لدرجة أن كينان أطلق عليه مصطلح «الإدمان القومى» الذى لا يستطيع المجتمع الأمريكى أن يقلع عنه وإلا أصابته أعراض لا قبل له بها؛ فالأمر ليس مقصورًا على جبروت أصحاب مصانع الأسلحة، وعلاقاتهم الوطيدة الراسخة مع الإدارات الأمريكية المتتابعة ومديرى وكالة المخابرات المركزية وأعضاء الكونجرس وغيرهم من كبار القادة المسئولين، وإنما يمتد ليشمل ملايين الناس فى الحياة المدنية بالإضافة إلى ملايين آخرين فى الزى العسكرى، وكلهم اعتادوا أن يحصلوا على معاشهم من المؤسسة العسكرية الاقتصادية. وهناك أيضًا المشروعات العملاقة التى تعتمد على الإنفاق العسكرى، الذى أصبح المصدر الرئيسى للعجز فى الميزانية وما يسببه من ثغرات، تفقدها عناصر الاستقرار. ويشرح كينان الملابسات التى أدت إلى إنشاء رابطة غير صحيحة وغير سوية، بين الذين ينتجون ويبيعون الأسلحة، والذين يعتمدون لها الميزانيات فى واشنطون، وبذلك ترسخت مصالح ضخمة بالاحتفاظ بمؤسسة عسكرية أخطبوطية فى وقت السلم، وفى تصدير كميات ضخمة من الأسلحة لشعوب أخرى. ومن هنا كان السوفييت بمثابة حجة فى التصدى لتهديداتهم. ويعقب كينان على هذه الظاهرة بأن المؤسسة العسكرية الاقتصادية الأمريكية فى حاجة دائمة إلى خلق عدو، يمنح قوة دفع متجددة لإنتاج السلاح وتطويره وترويجه فى شتى أنحاء العالم، ولو لم يكن هناك السوفييت فى النصف الثانى من القرن العشرين، لكان من الضرورى إيجاد هذا العدو بأسرع ما يكون؛ حتى لا تبور تجارة السلاح الأمريكى. وقد ثبتت صحة نظرية كينان فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، عندما تم إلصاقه بتنظيم القاعدة والدول التى تحتضنه، ورفع

شعار «الحرب على الإرهاب» بصفته العدو الجديد بعد اندثار الاتحاد السوفييتى. وتمتد نفس النظرة الموضوعية التى تميز بها فكر كينان إلى موقفه من إسرائيل، والتى ناقش علاقتها بالولايات المتحدة من منطلق أن إسرائيل تمثل اهتمامًا حيويًا لأمريكا. وهو يتشكك فى هذا التوجه؛ لأنه يعتبر أن إسرائيل، قد تكون مهمة بالنسبة للولايات المتحدة، ولكنه لا يعتبرها مهمة بالمفهوم العلمى أو المعنى الدقيق للأهمية، فيقول إنه إذا تعرضت إسرائيل مثلاً لأسوأ احتمال، فإن هذا سوف. يصدم الرأى العام الأمريكى، ولكنه لن يمثل قضية مصيرية للوجود القومى الأمريكى نفسه صحيح أن هناك التزامًا أمريكيًا تجاه إسرائيل، لكن ما نوع هذا الإلتزام ومداه عندما يحتم الموقف العمل بمقتضاه؟! يوضح كينان أنه عندما أيدت أمريكا إقامة إسرائيل، فقد قبلت بهذا الموقف جزءًا من المسئولية عن نجاح هذا المشروع فى مراحله الأولى، لكن هذا الالتزام لا يعتبر دائمًا ومستمرًا. ذلك أن من بدهيات المفاهيم السياسية أن أى إدارة أمريكية ليس لها الحق فى أن تلزم السياسة الأمريكية بشكل دائم ومستمر بمسئولية أمن أرض، ليست جزءًا من الولايات المتحدة، وتقع على بعد آلاف الأميال من شواطئها.

ونظرًا لرحابة المنظور الفكرى وعمقه عند كينان، فإنه لم يقتصر على شئون السياسة الخارجية والدولية لبلاده والعالم، بل امتد ليشمل القضايا الداخلية للمجتمع الأمريكى؛ ليخصه بجزء من سباحته ضد التيار السائد كعادته. فقد انشغل بما يواجهه من سلبيات وأمراض فى عدد من المجالات، لدرجة أنه اعتبر التهديدات الداخلية المتربصة بالمجتمع، أكثر خطورة من تلك التهديدات الخارجية السياسية والعسكرية. فإذا كان ثمة تهديد حقيقى للمجتمع، فإنه يتمثل فى السلبيات التى تعتور الحياة الاجتماعية الأمريكية، مثل: التفرقة العنصرية، ومشكلات المدن الكبرى، ومشكلات التعليم والبيئة. بل إن نظرة كينان الواقعية والعلمية تتجاوز هذه الحدود إلى المفاضلة بين هذه المشكلات الداخلية، وإطلاق مركبات الفضاء، فيفضل الأولى مئات المرات، لأنه يؤمن بأنه إذا لم يتحقق التقدم بالنسبة لمشكلات الأرض، فإنه أيًا من الأقمار الصناعية لن يفيد أى إنسان، فإذا كان على الإنسان أن ينتصر، فعليه أولاً أن ينتصر، على نفسه، وهذا الانتصار هو أعلى درجات الحكمة.

ولعل حرب ڤيتنام كانت نموذجًا واضحًا للمنظور الفكرى الشامل عند كينان، والذى لا يفرق بين المشكلات الداخلية والمشكلات الخارجية؛ لأن التفاعلات الجارية بين الجانبين تجعل منهما منظومة واحدة. ولذلك كان من الطبيعى أن يكرس كينان جانبًا من اهتمامه لأزمة خارجية واجهت الأمة الأمريكية، وهى الحرب الڤيتنامية التى انعكست على داخل المجتمع الأمريكى، فى صورة أزمة مستحكمة أمسكت

بخناق الشباب الأمريكى، الذى أغرقته بدوامات وأمواج متلاطمة من الغضب والعنف والاحتجاج بشتى الصور والأساليب، واجتاحته بكل مشاعر الاغتراب والرفض والضياع والاكتئاب واليأس، وغير ذلك من المظاهر والظواهر والمظاهرات فى كل تجمعات الشباب، وفى مقدمتها الجامعات والمعاهد الأمريكية، بالإضافة إلى انتشارها فى مختلف أرجاء المجتمع، حتى أصبحت واقعًا ملموسًا فى الحياة اليومية الأمريكية.

ولم يتوقف كينان عن خوض معاركه بكل الأسلحة النقدية، التى ظل يشهرها فى وجه كل السلبيات والأعراض المرضية حتى قارب التسعين من عمره؛ فإذا كان قد التمس بعض العذر للشباب، الذى جرفته أمواج الضياع والتشتت واليأس نتيجة لحرب ڤيتنام، فإنه انتقد بحدة الشباب نفسه لاستسلامه لإدمان المخدرات وخضوعه السلبى للملذات الحسية وفى مقدمتها الجنس. وتتجلى موضوعية كينان فى أنه يقر أن الشباب يملكون قوى ومنابع رائعة، يمكن أن تتدفق داخلهم، لكن هذه القوى والمنابع لا يمكن إطلاقها بأساليب الهيبيز، الذين يتخذون من الضياع فلسفة وأسلوبًا لحياتهم، ولا يدركون أن الجهد والعمل والإنتاج والتميز والإرادة هى الأسلحة الفعالة، التى تجعل الإنسان على وعى كامل بما يملكه من طاقة خلاقة، ويصبح قادرًا على تجسيدها وتوظيفها؛ بحيث يجعلها جزءًا من فكره ونفسه ويوصلها إلى الآخرين.

ويبدو كينان عالم اجتماع من طراز رفيع، عندما يتناول بالدراسة والتحليل مشكلات الشباب وسلبياتهم بصفتهم الجيل الذى سيتولى مسئولية البلاد فى المستقبل. فقد هاجم إساءة فهمهم للحرية التى تلاشت الحدود بينها وبين الفوضى والإباحية الكاملة، فليس هناك شىء اسمه الحرية المطلقة ولن يكون، فالحرية تتحدد فقط فى ضوء الالتزامات والقيود والتضحيات التى تقبلها وتسمح بها طبيعتها، وهى تتحدد فقط كمفهوم فى علاقاتها بشىء آخر، والذى هو بالتحديد نقيضها، وبالتالى فهى تحتم الالتزام والواجب وضبط النفس، إذ إن الحرية تبدأ فقط بالقبول المتواضع بأن يكون الإنسان عضوًا وخاضعًا للنظام الطبيعى للأشياء، وهى لا تنمو أو تزدهر إلا بالنظام وتربية النفس على النظام والإيمان والعقيدة ونكران الذات والتجرد، وليس بالانغماس فى الملذات والتدهور الأخلاقى والمعنويات الهابطة.

أما عن علاقة الشباب بآبائهم، فإن كينان يشجب موقفهم غير البار، ويقول إنه ليس هناك وهم أكبر من الاعتقاد بأنه من الطبيعى أو المعتاد أن يعامل الإنسان أبويه بشكل خال من المشاعر الطيبة، التى قد يحل الاحتقار محلها، ثم يتوقع أن أبناءه سوف يعاملونه بعد ذلك بشكل مختلف.. إنهم لا يدركون أن ما يفعلونه هو كسر للسلسلة

الذهنية من العاطفة التى تربط الأجيال، وتعطى الاستمرار والمعنى للحياة. ورغم كل تحفظاته وانتقاداته لاتجاهات الشباب بصفة عامة وحركة الطلاب بصفة خاصة، فإن كينان لا ينتقص من قدر وحدة المشاعر التى تتملكهم، ولا يسمح لنفسه أن ينظر إليهم بكل ما يتملكهم من مشاعر الغضب والضيق بشكل متعالٍ ومترفع، ولايتجاهل مسئوليته ومسئولية جيله عن هذه المشكلات، وكأنها «لم تكن جزءًا من وجههم الكئيب المتحلل، الذى يطالعنا من هذه المرآة المشوهة» على حد قول كينان الذى يعترف بأن الاختلاف معهم حول عناصر فى فكرهم وسلوكهم، فإن الالتزام يقع عليه أساسًا وليس عليهم، ويقول إن مظاهر التطرف والعنف وحب الذات والتركيز عليها ومشاعر الاغتراب وأنواع الغرابة فى الملبس والسلوك والتفكير وغيرها تدل على أنهم قوم مرهقون، وربما مرضى، يتصرفون سواء بشكل عاقل أو غير عاقل بدافع من الإخلاص والمثالية، ورفض حياة لا معنى لها ومجتمع بلا هدف.

فى هذا السياق، يجدد كينان دعوته القديمة للسياسة الخارجية الأمريكية بأن تكون أقل طموحًا وبعدًا عن الأضواء، وأن تمتنع عن التدخل فى الشئون الداخلية للأمم الأخرى، وأن تدرك أن واجبها الأول هو المصلحة الوطنية، ولكن يجب ألا تنسى أبدا أن أعظم مصلحة يمكن أن تقدمها أمريكا لنفسها وللعالم، هى أن تقيم كيانها وتنظم بيتها، وأن تجعل من الثقافة الأمريكية نموذجًا للدماثة والإنسانية والصحة الاجتماعية، وكل ما يمكن أن يستمد منه الآخرون قوى الدفع الحضارى. ولذلك يهاجم كينان ما يعتبره من الأمراض، بل والجرائم التى أنتجتها الاتجاهات الحديثة، والتكنولوجيا الفالتة غير المكبوحة، والمؤسسات التى لاقيود عليها، وعبادة الاستهلاك الذى يصل إلى درجة السعار، وانتشار التوسع فى المدن، والقيود البيروقراطية التى تصيب الإدارة بالشلل، والإعجاب الزائد بالمظاهر الزائفة البراقة، لدرجة أن كينان عندما ينظر حوله لا يرى سوى «تدهور فى البيئة، وتدهور فى المستويات التعليمية، وازدياد فى الجريمة والمخدرات والظروف المرعبة لأحياء الأقليات واليأس والشك والسخرية والإرتباك والاضطراب وخاصة بين الشباب، مما أدى بعديد من المراقبين إلى أن يصفوا هذا المجتمع (وليس دون حق فيما أعتقد) كـ«مجتمع مريض»، على حد قول كينان نفسه.

كانت هذه الأفكار هى المحاور التى دار حولها كتاب كينان، الذى صدر عام ١٩٩٣م وهو فى الثامنة والثمانين من العمر بعنوان «حول التل الجيرى: فلسفة شخصية وسياسية»، وضمنه عصارة فكره وخبرته الدبلوماسية والتاريخية والفلسفية، وأكد به مكانته كحكيم أمريكى، سبح ضد التيار السائد ليصوغ العقل الأمريكى على

أساس علمى وموضوعى وحضارى. وفى هذا الكتاب، أعاد النظر فى عدد قليل من أفكاره وطور بعضها لكنه ظل متمسكًا ومدافعًا عن كل ما عبر عنه وبشر به من قضايا أمريكية وعالمية تخص البشرية جمعاء. وكان موقفه من قضية حقوق الإنسان من الأفكار التى أعاد النظر فيها، والتى غالبًا ما أقلقته وظل غير متأكد منها، فى حين أنها تعد فى مقدمة أهداف السياسة الأمريكية. وكان دائمًا لا يستسيغ تظاهر الولايات المتحدة بالمثالية والورع، والخروج على العالم فى صورة الحكم الأخلاقى، الذى يفصل فيما بين الدول والمجتمعات المتصارعة، وبالتالى تسمح لنفسها بأن تتدخل فى شئونها الداخلية، وهو ما رفضه كينان تمامًا لتعارضه مع مفهومه العلمى والعملى للإدارة الحقيقية للسياسة الخارجية، فلا يمكن أن يصبح التدخل فى الشئون الخاصة بالدول والمجتمعات من آليات تطبيق حقوق الإنسان، لغياب الضمانات الكفيلة بهذا التطبيق؛ إذ إن الثقة فى النوايا الطيبة للدولة الكبرى التى ترفع رايات حقوق الإنسان، تفكير أو سلوك فى غير محله؛ لأن النفس الأمارة بالسوء فى حالة الإنسان الفرد هى نفسها فى حالة الدولة الكبرى. ومن هنا كانت وجود الرقيب الدولى الذى يتمثل فى المنظمات والمؤسسات العالمية التى تملك صلاحيات القيام بدور الحكم المحايد. ولذلك أصبحت الأمم المتحدة فى نظر كينان «الرمز الوحيد لوحدة المصير التى تربط فروع الأسرة البشرية، وسوف تكون خسارة ضخمة للبشرية جمعاء، إذا ما أهملنا أو تخلينا عن هذا الرمز». وهذه نقطة تحول فى فكر كينان، الذى كانت تتملكه الشكوك تجاه الأمم المتحدة لدرجة أنه كان يأمل عند التفكير فى إنشائها عام ١٩٤٥ أن يتخلى الرئيس روزفلت عن الفكرة بأكملها؛ لاعتقاده السابق باستحالة تطبيق المعايير القانونية والأخلاقية على العلاقات الدولية.

من نقطة التحول هذه، بدأ إيمان كينان بالمنظمات والمؤسسات التى يمكن أن تلعب دور عقل العالم وضميره، ففى فترة شبابه فيما بين الحربين وفقدان الوهم فى الديمقراطية التى سحقتها الديكتاتورية، أصبح يميل لتأييد السلطة المطلقة الرشيدة، ولكن تجاربه وخبراته ودراساته بعد ذلك، طورت فكره وأصبح يشك فى وجود أى ضمان يجعل الحكم السلطوى يتصرف دائمًا برشد. ولكن هذا لم يجعله يتطرف إلى الاتجاه المعاكس؛ إذ لم يتخل عن اعتقاده القديم بأن الديمقراطية طبقًا للتوجهات الأمريكية أو الغربية ليست بالضرورة المثل الأعلى أو المصير النهائى للبشرية، وهذا يدل على أن فكره العلمى والعملى أكد له دائمًا أن كل الأفكار والنظريات، التى ابتكرها العقل البشرى قابلة للمراجعة وإعادة النظر وطبقًا للمتغيرات والمستجدات على الساحة السياسية، التى لا تحتوى على أية مقدسات لا يمكن أن تمس، وهو ما ينطبق على الديمقراطية.

وقد خصص كينان فصلاً فى هذا الكتاب، عالج فيه الآثار السلبية بل والمدمرة للتكنولوجيا الحديثة، التى يعشى بريقها الأبصار بحيث يفقد البشر القدرة على رؤية معطياتها فى أحجامها ووظائفها الحقيقية، وهو الوضع الذى وصفه كينان بأنه إدمان يصل إلى درجة الغيبوبة. من نماذج هذا الإدمان، الافتتان بالسيارة والتليفزيون والإعلانات وغيرها. وكينان ليس من السذاجة بحيث يشجب التقدم التكنولوجى، ولكنه ينعى على الإنسان المعاصر أنه أصبح يعيش وضعًا مقلوبًا وعبثيًّا للغاية؛ إذ أصبح فى خدمة بل وتحت رحمة المبتكرات التكنولوجية، فى حين أنه يفترض أن تكون فى خدمته لتسهيل سبل معيشته. فمثلاً يتحدث كينان عن السيارة وطابعها غير الاجتماعى وفاقدها وتلويثها للبيئة، بل وباعتبارها هدية للجريمة ودعوة لانحراف الأحداث. كذلك فإن التليفزيون فى نظره جهاز «يخفى سيطرته وراء وعد تحرير عقل المشاهدين من السلبيات التى تعتوره»، فى حين أنه فى الواقع يدعم السلبية ويمارس سلطة شبيهة بسلطة المخدرات، وتأثيرًا ونفوذًا غريبًا أشبه بتأثير المنوم على كبار السن.

ويكشف كينان عن فشل الإدارة المركزية الأمريكية فى التعامل مع مجموعة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والصحية والمالية والتكنولوجية والثقافية، التى أصبحت خارج نطاق السيطرة وبشكل خطير. ويلاحظ كينان أن المشكلات ذات خاصية مشتركة تتمثل فى أنها طويلة، أو بعيدة المدى، تحتاج إلى استراتيجية طويلة النفس، فى حين أن الديمقراطية الحديثة ليست مهيأة بشكل كفء للتعامل مع هذه المشكلات الطويلة الأجل؛ لأن الناخبين يطالبون دائمًا بمكاسب ومزايا عاجلة تناسب الإيقاع اللاهث للعصر كله. وهذه السرعة التى يعتبرها معظم أبناء العصر إحدى ميزاته، ليست ميزة على الإطلاق؛ إذ إنها أدخلت البشر فى دوامة لا تهدأ، أفقدتهم مذاق الحياة التى أصبحت هى نفسها بلا معنى. ومن هنا كان قلق كينان حول مستقبل بلاده، مما جعله يختم يومياته فى سبتمبر ١٩٨٨ قائلاً:

«إننى أنظر إلى الولايات المتحدة فى هذه السنوات الأخيرة للقرن العشرين على أنها أساسًا بلد مأسوى، وهبه الله مصادر طبيعية رائعة ولكنها تستنفذها وتفقدها بشكل سريع، كما وهبها نخبة من أهل الفكر والثقافة أصحاب موهبة عظيمة وأصيلة، غير أن القوى السياسية المسيطرة لا تحمل إلا فهمًا وتقديرًا هزيلاً لهذه النخبة المثقفة، التى كتب على صوتها الصمت أو التلاشى تحت وطأة صخب أجهزة الإعلام التجارية».